قلق في أدب الاستيطان

محمد الأسعد

كان الشاعر اليهودي الروسي اسحق شاليف، في ايام استيطانه الاولى في فلسطين، لا يستطيع صبراً على شيء. فما ان وقّعت اتفاقيات الهدنة حتى أعلن ان هذه الاتفاقيات تكاد تضع الكلمة الأخيرة في حركة الخيال الادبي، وتضع حدّاً نهائياً لأي أحلام او قصيدة.

كانت قصيدته تبدأ وتتواصل مع كل احتلال جديد؛ وكان يأمل، ربما، في كتابة ملاحم بلا نهاية. وكذلك كان الحال مع مجموعة الستة والخمسين اديباً واستاذاً، وبينهم البولوني والروسي والهنغاري والالماني، حين قدّموا اول التماس، في العام ١٩٧٠، يطالب باقامة «اسرائيل الكاملة».

أهو خيال أدبي أم عمى ايديولوجي ذلك الذي جمع بين الترمان وجرغيبرغ وسوكرمان وعجنون، وكل هذا الخليط من أدباء الاستيطان الصهيوني في فلسطين؟

ومع ذلك، فان عقداً كاملاً كان كافياً لأحداث تغيير في الخيال الاستيطاني، سواء أكان ادبياً أم غير أدبي. فمن التساوق بين الخيال والقصيدة والجنرال والسياسي انتقل الأدب الصهيوني الى مرحلة الارتباك: ارتباك في الشارع ذاته الذي كان هادئاً منذ سنوات خلت، وفي القصيدة ذاتها التي كانت واعدة.

ان وقتاً، لا شك، قد مرّ بين شاليف، الذي يساوي بين فعل القصيدة وفعل الاغتصاب، وبين داليا رابيكوفتش التي لم تعد تشك في «ان الفلسطينيين سينجحون في نضالهم...». وهو وقت لم يُقيَّض لنا ان نقبض على تفاصيله بما يتجاوز هذه المقالة القصيرة والسريعة التي اهتمت بملاحقة الشروخ في الروح الاستيطانية.

ان اسفاراً عديدة يمكن ان تكتب عن كيفية خروج المستوطن متعدّد الجنسية من وهم «القومية» و«الشعب» و«فلسطين» في وقت واحد، ليس لأن شاعراً مثل يهودا عميحاي، مثلاً، شعر بأنه لا يطيق العمى الايديولوجي ودورانه حول هذه الساقية: ساقية «الشعب» و«الوعد الالهي»، وما الى ذلك؛ وليس لأن عاموس كينان يشعر بأن التعصب الصهيوني سيدمّر هذا الكيان من الداخل؛ وليس لأن يزهار سميلانسكي ما زال يشعر بتأنيب الضمير منذ اربعين عاماً؛ ليس كل هذا هو السبب الذي جعل الاوهام أكثر من انصاف حقائق في أفق الاستيطان وفكره؛ بل ان السبب الجوهري هو ان النقيض التاريخي ما زال قائماً، وقد خرج من البيانات والمنتديات الدولية والمناسبات وأخذ يتملّك حضوره الضاغط.

اننا ندرك ما تعنيه داليا رابيكوفتش حين تشعر بالقلق والمسؤولية عمّن تسميهم سكان المناطق المحتلة؛ ذلك القلق الذي دفعها هي وعدد من شعراء وكتاب وأساتذة الاستيطان الى زيارة غزة.